تاريخ المدينة (شكل 4 – 10)

دنقلا العجوز (بالنوبية تُقُل و بالعربية دنقلا) كانت من بين أهم مراكز مملكة المغرة في العصور الوسطى (Godlewski 2004). قامت المدينة على صخرة عالية تطل على الضفة الشرقية للنيل، في منتصف الطريق بين الشلالين الثالث و الرابع، محتلة الطرف الجنوبي لحوض لتي الذي شكل قاعدة إقتصادية للمدينة. خلافا لفرضيات سابقة لبعض علماء الدراسات المصرية الذين إعتبروا أن أهمية المدينة قد تجلت حتى في العصر النبتي، فإنه قد تبين الآن أن المدينة لم تؤسس إلا في نهاية القرن الخامس الميلادي. والراجح أن مؤسسها كان أول ملوك المغرة. و هو الذي شيد قلعة ضخمة في موضع يبعد عن المراكز الدينية لمملكة كوش السابقة (مملكة نبتة)، لكنها تقع في قلب المملكة الجديدة (أنظر خريطة المغرة المبكرة). كما شُيدت فيها قلاع ضخمة من الطوب اللبن وكتل من الحجر الرملي الحديدي.

إن هذا الموقع السكني الجديد هو واحد ضمن سلسلة من المواقع منيعة التحصين التي يبدو أن حكام المغرة قد قرروا إقامتها على إمتداد ضفة النهر. وعلى ما يبدو فإن الهدف منها كان إجتماعيا – إقتصاديا، أكثر منه عسكريا. حيث المفترض أن الفكرة تتلخص في تعميق تأثير أساليب التمدن البيزنطية. و عليه فقد أصبحت قلعة دنقلا مركز للسلطة يحوي قصرا ملكيا و مبان عامة و مكان لتجميع الموارد الإقتصادية.

من المحتمل أن القبر المنحوت في الصخر الذي يقع في الفضاء شمال المدينة قرب الحد الجنوبي لمدافن جبل الغدار، كان يضم رفات أول حاكم أقام في دنقلا. اليوم لم يبق شيئا من هذا القبر سوى غرفتي الدفن اللتان يمكن النزول إليهما عبر درج عريض ينحدر من إتجاه الغرب.

تزامنا مع التحول إلى الديانة المسيحية في منتصف القرن السادس الميلادي برز تحد جديد للنمو العمراني. فالقلعة التي لابد أنها كانت آهلة بالسكان منذ بداية القرن السادس، لم يعد فيها موطء يتسع لكل الكنائس التي كان المبشرون و حكام المغرة يزمعون إقامتها. لذا فإن المعابد الجديدة – كالكنيسة القديمة ثلاثية الأجنحة و المبنى X التذكاري

المقام على شكل الصليب – إستوجبت إقامتهما استغلال الأرض الفضاء إلى الشمال من القلعة (أنظر القلعة).

من الراجح أن المبشرين الذين كانت مهمتهم تنصير المغرة، قد قدموا من القسطنطينية. و أن أول الكنائس في دنقلا كانت عناصرها تشترك في الشبه إلى حد بعيد مع معمار الكنائس في فلسطين و سوريا. خلال فترة السبعينات من القرن السادس تأسست أبرشية في دنقلا. في موضع المبنى X الذي غمرته مياه فيضان نيلي جارف، أقيمت كاتدرائية؛ EC1 بازيليكة الأعمدة، ذات الأجنحة الخمس، التي أطلق عليها الأثريون إسم كنيسة الأرضية المعبدة بالحجر (أنظر الكاتدرائيات). أما سقفها الخشبي فقد رفع على أعمدة من حجر الجرانيت الوردي اللون. شكلت كل من حجرات الكهنة الداخلية (pastophoria) و الرواق الملحق بها الذي يمتد خلف المحراب وحدة متجانسة في الطرف الشرقي للمبنى. و هنالك درابزين حجري يحجب المحراب و المذبح الذي يوجد في الناحية الشرقية للجناح. علاوة على ذلك هنالك أيضا مصاطب مشيدة في المحراب. كما ضم المبنى الجديد هذا قبوين يقعان أسفل المحراب، كانا في الأصل بعض من المبنى التذكاري. حوى هذان القبوان رفات رجلين يفترض أنهما كانا رُسل المملكة.

هنالك إعتقاد سائد أنه حتى قبل نهاية القرن السادس الميلادي، أن أحد أول أساقفة دنقلا المدعو مرقص (Merkurios) - إن وثقنا في صحة التوقيع المخطوط على حجر العقد في أحد القناطر الداخلية – هو من أسس دير في الخلاء الشرقي، على بعد 1.5 كيلومتر من القلعة. الكنيسة وهي بازيليكا بثلاثة أجنحة وبرج في الوسط تدعمه أربعة أعمدة حجرية وهي تمثل الجزء الوحيد من المُنشأة الأصلية الذي جرى فيه التنقيب. و كما تفيد اللوحة الجنائزية (شاهد القبر) للأسقف جرجس (Georgios) الذي كان أيضا رئيسا للدير من العام 1113، المكتشفة في الملحق الشمالي الغربي، إلى الغرب من المجمع، أن الدير كان مُكرسا لأنطوني الأكبر.

شهدت نهاية القرن السادس ضم دولة نوباتيا وتوحيدها مع دولة المغرة، بذا أصبحت المغرة في القرن السابع في إتصال مباشر مع مصر البيزنطية. وعليه فإن العديد من اللُقى المتمثلة في الجرار المصرية المنتجة في معامل الفخار في أسوان و مصر

الوسطى و مريوط، وكذلك الجرار المستوردة من فلسطين و شمال أفريقيا، قد تم إكتشافها في قصر يوأنس (Ioannes) بالقلعة. إن جميع هذه المنتجات المستوردة تشهد بعمق الروابط التجارية بين البلدين. كما أن الإتصالات مع أسقف الإسكندرية الخلقيدوني (Chalcedonian) قد أدى سريعا إلى تأسيس أبرشيات جديدة في المغرة، الأمر الذي قاد بدوره إلى تطور سريع للكنيسة في المملكة.

في منتصف القرن السابع أحكمت الجيوش العربية حصارا حول القلعة إلا أنها لم تفلح في إسقاطها. إن إتفاقية السلام أو البقط التي كانت عبارة عن مواصلة لعلاقات سابقة مع مصر البيزنطية و التي وقعها الملك قاليدوروت (Qalidurut) مع حاكم مصر عبد الله بن أبي السرح، قد نظمت علاقات المغرة السياسية و الإقتصادية مع الخلافة للخمسمائة وعشرين سنة القادمة. المعلوم أن المدينة لم ُتقهر رغما عن أن الكاتدرائية قد ُهدمت، وأن الأبنية الواقعة شمال التحصينات قد نالت نصيبها من التخريب.

في ظل حكم قاليدوروت (Qalidurut) و وريثه زكرياس Zacharias أعيد بناء ما خُرب من أبنية، ومن ثم أضحت المدينة تتطور بشكل متناسق. فدُعمت التحصينات ببرج ضخم أقيم على سطح صخري عال يشرف على النهر (أنظر التحصينات). و قد أستخدمت في بناء أساسات هذا البرج أعمدة و تيجان من الجرانيت الوردي، كان مصدرها هو خرائب الكاتدرائية الأولى. أما الكاتدرائية نفسها فقد أعيد بناؤها لتصبح بازيليكة بخمسة أجنحة، تعلوها قبة (EC.II)، رُفعت هي وسقف المبنى على ركائز. وقد ُزينت أرض الجزء المخصص للكهنة (presbytery) بفسيفساء ُنظمت في أشكال هندسية صُنعت من حصى صحراوية ملونة.

قبل حلول نهاية القرن السابع شُيد مجمع جديد. فقد ُبنيت كنيسة الأعمدة الجرانيتية مكان الكنيسة القديمة. فأضحت صرحا دنقلاويا فريدا، مزج بين عناصر المخطط المركزي – الذي يتألف من جناحين ينتهيان عند المحراب و يتقاطعان في الوسط – و العناصر و الصفات النمطية للبازيليكة التي هي قدس الأقداس ذو الأعمدة (columnar naos) و مبنى التعميد (narthex) (أنظر الكاتدرائيات). أحيط قدس الأقداس في الكاتدرائية الجديدة بملاحق جانبية لتؤدى فيها مختلف الشعائر الدينية (pastophoria, baptistery).

وقد أصبح هذا المبنى نموذجا للكاتدرائية التي شيدها في فرص الأسقف بولس Paulos في عام 707 (Godlewski 2006a).

كذلك شهدت فترة حكم قاليدوروت Qalidurut مولد مبنى على شكل صليب (Cruciform structure) تعلوه قبة في الوسط و له مدخل في كل من أذرعه الأربعة، وذلك أمام الواجهة الجنوبية للقصر الملكي في الجزء الجنوبي الغربي للقلعة. إن اللوحات الجدارية التي بقيت منها فقط بعض الأجزاء، لهي شاهد على نوعية الزخارف الداخلية للمبنى الذي لابد أنه كان صرحا فريدا أقيم لتخليد ذكرى أولئك الذين قضوا دفاعا عن دنقلا (أنظر النُصُب التذكارية).

لم تكن دنقلا في القرنين السادس و السابع فقط مجرد قلعة و مجمع كاتدرائيات. ففي إتجاه الشمال إمتدت لمسافة تقدر بأطول من الكيلومتر، منطقة سكنية رحبة الإتساع. كانت كل المساكن فيها ذات طوابق. وقد تراوحت مساحاتها بين مائة و مائة وعشرين مترا مربعا (أنظر المساكن). كما تميزت جميعها بمخطط عملي. فقد كان بها نظام حمامات و أجزاء مخصصة للسكن في الطابق العلوي، بنوافذ كبيرة عليها شباك فخارية، وصالات بأعمدة تفتح على سطوح محاطة بدرابزين مصنوع من الحجر. و كان بالطابق الأرضي في المنزل A حمام به فرن لتسخين المياه التي تنساب عبر أنابيب لتصب في حوضين معدان للإستحمام، بينما يدور الهواء الساخن عبر قنوات هوائية مصممة في الجدران لتدفئة المنزل. زينت حوائط الحمام رسومات للمسيح المنتصر بجانب الملائكة و القديسين المحاربين و ذلك إضافة إلى دوائر بها رسوم لأشخاص أو مخطوطات (tondo) كذلك كست الجدران رموز مختلفة وزخارف نباتية. كما تكرر إستعمال الأفاريز و الرموز و الموضوعات النباتية في الزخارف التي رُسمت على جدران الغرف الأخرى في الطابق الأرضي.

إن أكثر المباني التي تعتبر نموذجا مثاليا في دنقلا و رمزا للمملكة، هي تلك التي شُيدت في القرن التاسع (Godlewski 2002) وذلك في عهد زكرياس Zacharias (Augustus) و جرجس Georgios (Caesar) اللذان حكما المغرة معا مدة عشرون عاما (835-856). بعد عودة الملك جرجس من بغداد عام 836 شُيدت كنيسة

شكل صليب (Cruciform Church) في موضع البازيليكة المقببة (أنظر الكاتدرائيات). وهي قد كانت أضخم مبنى في كل المملكة. علت الجزء الأوسط من المبنى الذي ربطته بالأذرع أروقة ذات عمد، قبة ربما كان إرتفاعها حوالي 28 مترا من أرض الكنيسة. وقد حوى الذراع الشرقي للمبنى هيكل أقيم على قبو رُسُل المغرة. أصبحت هذه الكنيسة رمزا للمملكة و مصدر فخر لحكامها إلى أن هُدمت خلال الحرب مع المماليك في أواخر القرن الثالث عشر.

في القرن التاسع شُيد قصر جديد على مرتفع صخري يقع شرق القلعة (أنظر صالة العرش). صُممت في طابقه العلوي صالة العرش و شرفة على السطح (terrace) كان الوصول إليها يتم عبر درج صرحي، فتجعل الناظر منها إلي النهر والمدينة يحبس أنفاسه من روعة المشهد. إلى ذلك قد كست الرسومات الجدارية حوائط الدرج و صالة العرش. إن فكرة المعمار البيزنطي قد عبرت بشكل كامل عن تأثر حكام المغرة و مدى إرتباطهم بالتقاليد البيزنطية.

على ضفة النهر ومباشرة أسفل الحد الغربي للتحصينات أقيمت أيضا في القرن التاسع عشر كنيسة صغيرة لكنها على جانب كبير من الأهمية، وقد عُرفت بإسم كنيسة الأعمدة (أنظرالكنائس). تتألف الخارطة المركزية لهذه الكنيسة من صليب يُشكل في المجمل مستطيلا. إن فكرة هذا المخطط تسلط الضوء مرة أخرى على المقدرات الخلاقة التي يتميز بها الوسط المعماري في دنقلا.

بلغت دنقلا في الفترة مابين القرن التاسع والحادي عشر قمة التطور. حوالي القرن الثالث عشر (1200) كتب الراهب المصري أبو المكارم (OSN 326) واصفا المدينة بالعبارات التالية: " هنا عرش الملك. إنها مدينة كبيرة على ضفة النيل المبارك، بها كنائس كثيرة ومنازل كبيرة وطرقات فسيحة. منزل الملك سامق، تعلوه قباب عديدة مُشيدة بالطوب الأحمر." علاوة على ذلك فقد تميزت دنقلا بمجمعات معمارية هامة تقع خارج المدينة. ففي الخلاء و على بعد حوالي 1500 متر في إتجاه الشمال الشرقي من القلعة ينتصب ديركبير، يُفترض أن نشأته تُنسب لأول أساقفة دنقلا (أنظرالأديرة). حاليا تنتظم الحفريات الأثرية بشكل رئيسي في الملحق الشمالي الغربي الذي أقيم بالقرب من مجمع

الأديرة في زمن ما بين القرنين الحادي عشر والثاني عشر. على أن هذا المبنى ما انفك يستعصي على الفهم، فكل ما يمكن أن يقال عنه حتى اليوم، هو أنه قد تعرض عدة مرات للعديد من عمليات التحوير والتجديد. وقد كان يؤدي وظيفتين؛ إحداهما دينية و الأخرى مقر إقامة غطت جدرانه كثافة الرسومات (Martens-Czarnecka 2011) . اليوم تمثل هذه المجموعة شهادة قوية لفن الرسوم الجدارية في دنقلا في الفترة المتأخرة، الذي ينطوي على توجه جديد مثير للإهتمام. يصور هذا التوجه علية القوم في المملكة الذين من المحتمل أنهم أفراد العائلة الملكية وهم داخل هيكل صغير تحت حماية ملاك بصحبة الرُسل. إن هذا النمط الجديد في التصوير الرسمي، تبدى لأول مرة في النصف الثاني من القرن الحادي عشر، حيث أنه قد إرتبط بجرجس (1031-1113) رئيس الدير الذي أصبح فيما بعد أسقف دنقلا (Łajtar 2000) .

شيد الأسقف جرجس مقبرته وهيكل أعلى قبو مدفني يقع ضمن ملحق الدير. غطت جدران هذا القبو مجموعة مخطوطات فريدة كتبت باللغتين الإغريقية والقبطية، جميعها ذات طابع ديني و سحري. هذا وقد حوى القبو أيضا رفات الأسقف الذي خلف جرجس.

إن دنقلا أوآخر القرنين الثاني عشر والثالث عشر قد إستمرت في النمو. إلا أنه على إثر الخلاف مع الأيوبيين في عام 1172م و إلغاء إتفاقية البقط، بدأت المغرة تواجه تحديات جديدة، إقتصادية وعسكرية. خلافا للتحصينات في مدن المغرة الأخرى فإن تحصينات دنقلا الدفاعية قد جرت صيانتها وتوسيعها. كما تم أيضا تشييد عدد من الكنائس في الطرف الشمالي من المنطقة السكنية.

شهد الربع الأخير من القرن الثالث عشر ختام مراحل المأساة. حيث أن مغامرة الملك داؤد (David) وحملته الغير محسوبة العواقب على ميناء عيذاب في البحر الأحمر و مدينة أسون، قد أثارت نقمة المماليك و دفعتهم للإنتقام . ثم قضي الأمر بهجوم السلطان بيبرس و إحتلاله لدنقلا. ومن بعد إستمرت مصر في التدخل في شئون المغرة، مثال لذلك دعمها لعديد المطالبين بالعرش في دنقلا. و في نهاية القرن الثالث عشر تعرضت المباني الرئيسية في دنقلا للتدمير، كما لقيت كنيسة الصليب (Cruciform Church) عين المصير أيضا، إلا أن الكنائس الصغيرة ظلت قيد الخدمة. و بحلول عام 1317م تحولت

صالة العرش في القصر الملكي إلى مسجد (أنظر مملكة مدينة دنقلا). بعدها ُهجر البلاط الملكي في دنقلا في عام 1364م. وبما أنه لم يعد في مقدور حكام المغرة السيطرة على القبائل الصحراوية، فكان أن بسطت هذه القبائل نفوذها على الأجزاء الجنوبية من المملكة حتى منطقة بطن الحجر.

رغما عن كل ذلك ظلت دنقلا مركزا على قدر من الأهمية. وبمرور الزمن إنتشرت مبان سكنية في منطقة القلعة وبين أنقاض الكاتدرائية وكنيسة الصليب. عكس معمار هذه المباني تقاليد مختلفة عن ما هو مألوف في المنطقة، ربما كانت مرتبطة بتغيرات عرقية و إجتماعية حدثت في دنقلا خلال القرن الخامس عشر. كانت دنقلا حتى القرن التاسع عشر مقرا لحكام إقتصر نفوذ سلطتهم على مملكة صغيرة خاضعة لسلاطين دولة الفونج. إنتقلت المنطقة السكنية جنوبا و إلى جوار الجامع الذي ظل في موضعه في الطابق العلوي في القصر الملكي القديم. كذلك برزت في المدافن القديمة مجموعة من قباب مميزة لشيوخ من رجال الدين المحليين (أنظر المدافن). يبدو أن أسبابا إقتصادية قد أدت لهجر الموقع في نهاية القرن التاسع عشر، إلا أن المسجد الذي أخذ في التصدع لم يزل يؤدي وظيفته حتى عام 1969م حين أغلق نهائيا، ومن ثم أصبح الآن صرحا تاريخيا هاما.